الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية –قسنطينة
كلية الآداب والحضارة الإسلامية
قسم اللغة العربية

استمارة المشاركة في الملتقى الوطني الأول

الأمير عبد القادر الجزائري والانفتاح الفكري والأدبي

الاسم الكامل:	مريم زنور
الرتبة العلمية:	أستاذ محاضر ب
التخصص:	نقد أدبي
مؤسسة الانتماء:	جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية –قسنطينة–
البريد الالكتروني:	Marianour1985.43@gmail.com
رقم الهاتف:	0667075011

- **عنوان المداخلة:** النقد المقاوم في فكر الأمير عبد القادر الجزائري كتاب - **المقراض الحاد لقطع لسان منتقص دين الإسلام بالباطل والإلحاد أنموذجا** -

المحور: التسامح والخطاب الحضاري عند الأمير عبد القادر

الملخص:

يعدّ **النّقد المقاوم** من أبرز المفاهيم التي أرساها مشروع النقد الثقافي عند **إدوارد سعيد**، الذي اعتبر الثقافة فعل مقاومة في مواجهة كافة أشكال الهيمنة والظلم والإقصاء الذي تكرسه المركزية الغربية ذات النظرة الكولونيالية المتعالية الساعية إلى تقزيم المنجز الحضاري العربي والشرقي عموما، وقد جاء كتاب **المقراض الحداد لقطع منتقص دين الإسلام بالباطل والإلحاد** للأمير عبد القادر الجزائري في سياق الردّ على تساؤلات المستعمر حول معتقداته الإسلامية، وهي تساؤلات مبطنة تعكس نظرة الاستخفاف بثقافة الجزائري المسلم وتبرر فرض الثقافة المركزية

الكولونيالية على الشعوب المستعمرة. من هذا المنطلق تسعى هذه المداخلة إلى تقصي ملامح النقد المقاوم في فكر الأمير عبد القادر عموما وفي هذا الكتاب على وجه الخصوص، متخذين من بعض استراتيجيات النقد الثقافي منهجا للقراءة والتحليل.

الكلمات المفتاحية: ثقافة – مقاومة- كولونيالية –الأمير عبد القادر- إدوارد سعيد-المقراض الحاد.

Abstract :

Resistance criticism is one of the prominent concepts established by Edward Said's cultural criticism project, which considered as an act of resistance against all forms of dominance, injustice and exclusion perpetuated by western centrism with its condescending colonial perspective seeking to belittle both western and eastern civilization achievements in general.

The book " The book"Al-Miqrad Al-Haddad liqatae Montakiss Din Alislam bilbatil and AL-Ilhad"by Prince Abdelkader El Djazairi came in the context of responding to implicit inquiries of the colonizer about his islamic beliefs, and they are veiled inquiries that reflect the view of belittling the Muslim Algerian culture and justify the imposition of the colonial central culture on the colonized people. From this standpoint, this intervention seeks to delineate the features of resistant criticism in prince Abdelkader's thought in general and in this book in particular, employing some strategies of cultural criticism as a method for reading and analysis.

Key words: Culture, Resistance, Colonial, Prince Abdelkader, Edward Said, Al-Miqrad Al-Hadad.

على سبيل التَّوطئة: "في مفهوم النقد المقاوم"

تعدّ دراسات ما بعد الكولونيالية **Postcolonialism** واحدة من أهم الحقول المعرفية ما بعد البنيوية المنضوية تحت لواء الدراسات الثقافية التي اتجهت نحو قراءة النصوص والظواهر الثقافية في ضوء العديد من الحقول المعرفية على غرار الفلسفة وعلم النفس والتاريخ والأنثروبولوجيا وعلم السياسة والنقد الأدبيّ، وقد تزامن ظهور الفكر ما بعد الكولونيالي مع تحرر واستقلال العديد من الدول التي كانت قابعة تحت نير الاحتلال في سبعينيات القرن الماضي، وقد احتل المفكر والناقد الأمريكي ذو الأصول الفلسطينية **إدوارد سعيد** (1935-2003م) مكانة خاصة في الدراسات **الكولونيالية** و**ما بعد الكولونيالية** من خلال ما قدّمه من دراسات وأبحاث عميقة كانت بمثابة اللبنة الأولى في هذا الحقل، حيث "تقوم تلك الدراسات بمقارنة الخطابات الثقافية على أساس علاقتها وصلتها الوثيقة بالموجّهات السّلطويّة الاستعمارية حيث يتكشف من خلال فكرته ذلك التشابه الكبير بين الفكر الكولونيالي والإنتاج

الثقافيّ الذي يرى أنّه يصل إلى حدّ التّماثل"[1]، ومن هذا المنطلق اتجهت كتابات **إدوارد سعيد** نحو قراءة الخطابات الأدبية والعديد من الظواهر الثقافية كالموسيقى والرّحلات والنصوص الفلسفية واللسانية والوثائق التاريخية ونصوص من الآداب الشعبية وغيرها من أشكال الإبداع الإنساني، مستثمرا الكثير من مقولات النظرية الأدبية لتفسير العلاقة الجدلية بين طرفي الثنائية الشهيرة (الشرق والغرب)، في محاولة لتفكيك الخطاب الاستعماري وكشف زيفه ما يدعيه من ديمقراطية وإنسانية وفضح نواياه المبطنة المستترة خلف دعاوى الحضارة والمدنية والتي لا تعدو أن تكون مجرد غطاء لنهب الخيرات والثروات والموارد الطبيعية والبشرية، ومن ثم قدّم إدوارد سعيد آليات واستراتيجيات مقاومة هذا الخطاب وتفكيكه، وسنحاول فيما يلي من هذه الورقة البحثية الوقوف عند أهم تلك الآليات وبيان مدى حضورها في فكر الأمير عبد القادر الجزائري في نظر إدوارد سعيد وفي رأينا الخاص، وللوقوف على ذلك انتهجنا خطة العمل الآتية:

1- ثقافة المقاومة عند إدوارد سعيد:

يعدّ كتاب **"الثقافة والإمبريالية"** ثاني أهمّ كتاب في سلسلة الدراسات التي قدّمها **إدوارد سعيد** بعد كتاب **الإستشراق – المفاهيم الغربية للشرق–**، وفيه بلور العديد من المفاهيم والتصورات إضافة إلى العديد من المقاربات التي تبنى فيها الاتجاه الثقافي في قراءة النصوص الروائية الغربية(إنجليزية وفرنسية) على وجه الخصوص باعتبارها تمثل أدب الآخر صاحب الفكر الامبريالي والنزعات الاستعمارية، والتي راح يبحث فيها عن الأنساق المضمرة التي توجه إنتاجها (النصوص الروائية الغربية) وتلقيها، مع بحث الأنساق الموجهة للخطابات الروائية المعاكسة أو المضادة لها والمتمثلة في الأعمال الروائية التي قاومت ذلك الفكر وجاءت رداً على الأعمال السابقة ممثلة في الروايات الإفريقية أو الشرقية أو الهندية، وعموما يمكن القول "أنّ كتابا من مثل – الثّقافة والإمبريالية– كتاب يصعب تصنيف أو عزل المفاهيم والتّصوّرات والأسس النظريّة التي يشتغل عليها، فهي تنبث فيه من بين تأريخ وجغرافية وأدب وفلسفة ونقد...ولعلّ أبرز رؤاه تتمثّل في إنكار أسطورة الأدب البريئ في ضوء ما ينوء به العالم من سيادة الفكر الإمبريالي ذي النزعة الاستخطاطية (الاستراتيجية)"[2]، ومن ثم كانت الغاية الأولى من هذا الكتاب (الثقافة والإمبريالية) هي رفض الاستقلال المزعوم بين النص كشكل من أشكال الثقافة وبين الإمبريالية أو الفكر التوسعي الاستعماري الساعي إلى إقصاء الشعوب المستعمرة ووسمها بالتخلف والدونية، وهو ما ينسحب على كافة أشكال الثقافة الرسمية منها والشعبية فكلها كانت –حسب إدوارد سعيد– موجهة لخدمة الفكر التّمركزي الأوروبي ونسف الآخر وجعله خارج التّاريخ، فكانت نظريته في هذا الكتاب "هي أنّ الثقافة قد أدت دوراً هامّا جداً بل لا غنى عنه بحق، فلقد كانت تقبع في السويداء من الثّقافة الأوروبية إبّان العقود العديدة من التوسّع الإمبريالي؛ تمركزيّة أوروبية لا رادع لها ولا هوادة فيها.

---

[1] سليم حيولة: استراتيجيات النّقد الثّقافيّ في الخطاب المعاصر من القراءة الجمالية إلى القراءة الثّقافيّة –بحث في الأصول المعرفيّة– ، ط1، دار ميم للنشر، الجزائر، 2021م، ص 348.

[2] بشرى موسى صالح: نظرية التلقي – أصول وتطبيقات–، المركز الثقافي العربي، المغرب، ط1، 2001م، ص ص 80-81.

ولقد قامت هذه التّمركزيّة بمراكمة التّجارب، الأراضي، الشعوب والتواريخ، ودرستها، وصنفتها، وأخضعتها للتّمحيص والتّحقق"[3]، ولذلك كانت **منهجية إدوارد سعيد** في قراءة النصوص تتجاوز أبنيتها البلاغية والجمالية وكذا اللغوية إلى ما هو خارج النص، فهو لا يرفض القراءة الجمالية ولا يراها عديمة الجدوى وإنّما يرى أنّ "التفكير بحبكة الرواية وبنيتها بوصفهما يتشكلان رئيسيا بفعل الزمانية، إلى درجة أننا أغفلنا وظيفة الفضاء، والجغرافيا، والموقع"[4].

ولعل السؤال الملح بالنسبة للطرف الآخر (المستعمَر) القابع في الهامش والمغيب من التاريخ والحضارة هو سؤال المقاومة، ما هي لمقاومة؟ وما تمظهراتها؟ وما هي سبل ممارستها؟

إنّ الإجابة عن هذه الإشكالات الكبيرة ضرورة ملحة لفهم الأنا لذاتها ولعلاقتها بالآخر، وتعديل العلاقة بينهما بما يضمن لكلّ طرف إنسانيته، وحق في الوجود الحضاري والتاريخي، والقارئ لكتاب **الثقافة والأمبريالية** لأدوارد سعيد يلحظ أنّه قد انصب "على توضيح الأشكال التي تتخذها السلطة من أجل الإخضاع، إخضاع الهوامش أو من هم في حكم الهامش، كما أنّه ركّز بشكل لافت على أشكال المقاومة التي يبديها إنسان الهوامش لكلّ شكل من أشكال السّلطة المهيمنة في حقّه وفي حق ثقافته"[5]، وهو ما يجعل المقاومة من جنس السلطة المهيمنة ونوعها، فإذا كانت الأخيرة سيطرة عسكرية لابد أن تكون المقاومة هي الأخرى غير بعيدة عن العمل العسكري، أما إذا كانت (السلطة المهيمنة) ثقافية فلابد أن تكون المقاومة كذلك، ومن هذا التصور اعتبر الثقافة فعل مقاومة، وضرورة بل وواجباً على كلّ مثقف.

ولئن كانت المقاومة تتخذ أشكالا متعددة حسب تصور **إدوارد سعيد** فهي قبل ذلك تمر بعدة مراحل "تتمثل المرحلة الأولى من مراحل المقاومة هي **الوعي النقدي**. فهو حالة مقاومة لفكر المتن، وهو وعي يفضي إلى تغيير ثقافة القبول بالهامش، وتصعيد حالة التذويت الذي يعني إعادة بناء المفاهيم والتصورات في ضوء كوننا ذوات نفكر ونشعر، في هذا العالم، وذلك بدوره خطوة في تفكيك منظومة القهر، وإنّ تفكيك أيّة منظومة سيصاحبه بالضرورة عنف بالضرورة"[6]، ولعل أهم تلك المراحل وأدقها المرحلة الأولى التي لا يمكن الخروج والتحول من الهامش إلى المتن **فالوعي النقدي** ضرورة فكرية وحضارية تنبني عليها سائر المراحل الأخرى، وقد عبّر **إدوارد سعيد** عن هذه المرحلة **بالنقد المقاوم**

---

[3] إدوارد سعيد : الثقافة والإمبريالية، ترجمة كمال أبو ديب، دار الآداب، القاهرة، ط4، 2014م، ص 279.

[4] المصدر نفسه، ص 152.

[5] سليم حيولة: مرجع سابق، ص 529.

[6] مصلح النجار: صورة الأنا عند الآخر وبتأثيره، ضمن ضمن الدراسات الثقافية ودراسات ما بعد الكولونيالية، وقائع المؤتمر الثالث للبحث العلمي في الأردن، 2007/11/17م، الجمعية الأردنية للبحث العلمي والدار الأهلية للنشر والتوزيع، الأردن، ط1، 2008م، ص ص 58-59.

"يرى نفسه مشجعاً على الحياة، ومعارضاً بحكم تكوينه، لأي شكل من أشكال الطغيان والهيمنة والظلم، مع العلم أن أهدافه الاجتماعية تتمثل بإنتاج المعرفة بحرية بعيداً عن القسر ولمصلحة الحرية البشرية"[7].

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وقد ربط سعيد بن النقد المقاوم والثقافة، جاعلا إياه من وظائف المثقف، باعتباره "صاحب وعي نقدي، واعي لا يكون حبيس إيديولوجية ما أو حزب ما، حتى يتمكن من إعادة النقد إلى العالم، والبحث عن حرية الرأي وحرية التعبير"[8]، ولعل تلك الصفات من شأنها أن تجعل المثقف رجل مقاومة صاحب فكر حر، واضح الانتماء صريح ليس من "دعاة المهادنة والتهدئة، ولا هو من بناة الإجماع، بل هو شخص يرتهن وجوده كلّه وكينونته كلّها بامتلاكه حساً نقدياً، أي وعيه بأنّه يرفض الوصفات أو الحلول السهلة، أو القوالب الفكرية أو اللّفظية المستهلكة، أو الأقوال التي يُقصد بها البرهنة على صحة ما يقوله أصحاب النفوذ ودعاة الحفاظ على الأعراف السارية وسلامة ما يفعلونه، وهي أقوال تتسم بقدر متزايد من مجاملة المتلقي وتملقه، وهو لا يرفض ذلك رفضاً سلبياً، بل يترجم رفضه . إلى فعل بتعبيره عنه على الملأ"[9]. فالقدرة على التعبير والردّ الصريح في وجه المركزية الغربية المتعالية هي المعنى الحقيقي للنقد المقاوم في أبعاده الإجرائية، فالرد يعتبر تصريحا برفض الخضوع والهامشية، ويأخذ الرد هو الآخر أشكالا مختلفة هي أشكال المقاومة ذاتها.

2- كيف قرأ إدوارد سعيد الأمير عبد القادر الجزائري؟:

سعى **إدوارد سعيد** في كتابه السالف الذكر (**الثقافة والإمبريالية**) إلى تفكيك الخطاب الاستعماري في ثلاث قوى إمبريالية هي الأقوى والأكثر سيطرة وتسلطا في تاريخ العالم وهي (الإمبريالية الإنجليزية- الإمبريالية الأمريكية – الإمبريالية الفرنسية)، وقد استند في ذلك إلى العديد من مظاهر الوعي النقدي المتمثل في أشكال مختلفة من المقاومة تأتي **مقاومة الأمير عبد القادر الجزائري** في مقدمتها، الذي عدّه **إدوارد سعيد** مثالا للمثقف المقاوم الذي استطاع قراءة الفكر الاستعماري واستيعابه والعمل على مواجهته بكافة الوسائل والأساليب تأتي الكتابة في مقدمتها كرد على مركزية الإمبريالية الفرنسية الساعية إلى ضرب المقومات الثقافية والدينية للشعب الجزائري ، فالسيف والقلم كانا أداتين متكاملتين في ثقافة المقاومة عند الأمير عبد القادر وهو ما صنع فرادة مقاومته.

بنى الأمير عبد القادر الجزائري مشروع مقاومته على جمع مقومات الثقافة الجزائرية على تنوع روافدها الدينية والقيمية واللغوية والاجتماعية والسياسية والتاريخية والجغرافية شكلت في مجموعها هوية الشعب الجزائري، وقد أبدى

---

[7] المرجع نفسه،ص 35.

[8] إدوارد سعيد: العالم والنص والنقد، ترجمة عبد الكريم محفوض، منشورات إتحاد الكتاب العرب، دمشق، ط1، 2000م، ص 28.

[9] إدوارد سعيد: تمثيلات المثقف، ترجمة حسام خضور، دار التكوين، بيروت، ط1، 2003م ص 23.

الأمير عبد القادر وعيا نقديا باهرا بالفكر الإمبريالي الفرنسي واستراتيجياته ومخططاته في ضرب تلك المقومات وتلك الهوية، وقد كان لثقافة الأمير الدور البارز في هذا الوعي النقدي الذي يمثل بعمق مصطلح النقد المقاوم كما أرساه **إدوارد سعيد**، يقول سعيد: **"أنّ المقاومة للإمبريالية كثيرا ما اتخذت الشكل الذي يمكن أن نسميه أصلانية مستخدمة كملاذ خاص، ويجد المرء ذلك لا في الجبرتي وحسب، بل أيضا في البطل المبكر العظيم للمقاومة الجزائرية: الأمير عبد القادر، وهو محارب من القرن التاسع عشر تعهّد نفسه، بينما كان يحارب جيوش الاحتلال الفرنسي، بالتلمذة الروحيّة النُسْكِيَّة على العَلَم الصّوفي ابن عربي الذي عاش في القرن الثالث عشر، أن تحارب ضد التشويهات التي تنزل بهويتك بهذه الطريقة هو أن تعود إلى مرحلة سابقة على الإمبريالية بحثا عن ثقافة أصلانية نقية صافية"** [10].

وهذا النص يلفت انتباهنا إلى مصدر هام من مصادر التنوع الثقافي عند الأمير عبد القادر، فإضافة إلى ثقافته الجزائرية الأصلانية كان للفكر الصوفي بأبعاده والفكرية دور بارز في تعميق ثقافة المقاومة عنده وجعلها مقاومة فريدة استطاعت الوقوف في وجه الإمبريالية الفرنسية الغاشمة الطامحة إلى توطين مقومات الثقافة الفرنسية، فعلى الرغم من أنّ المقاومة المسلحة كانت ضرورة وواقعا فرض نفسه على الأمير وأهله والشعب الجزائري كلّه، إلاّ الأمير في تعاطيه مع الواقع لم ينس أنّ "على هذه النخبة أن تباشر تعلّم أبجدية التمدن والعصرنة في مضامير السياسة والقيادة ليكون التأهيل على مستوى الأحدث التي لم تعد محصورة في إطار حضاري مغلق، بل لقد باتت التحديات تحدّق بالإنسان المسلم في عقر داره وكان من ثمة على النخبة أن تتصدى على الصعيد المعرفي لترد على التّحدي ولتجد الأجوبة الملائمة على ما كان فعل الاختراق الاحتلالي يطرحه من مؤرق الأسئلة والاستفزازات"[11].

لقد كان اهتمام الأمير عبد القادر بإرساء مشروع الثقافة الوطنية الجزائرية راجعا إلى فهمه العميق لطبيعة الصراع الدائر بينه وبين الإمبريالية الفرنسية والذي يتجاوز الصراع على الأرض إلى ما هو أشد عمقا، وقد أمعن إدوارد سعيد النظر في مقاومة الأمير من هذه الزاوية فإذا نظرنا إلى هذا النص الذي نقله **سعيد** عن أحد البحارة الفرنسيين:

"أيّها السادة لقد حكمت العناية الإلهية علينا بواجب معرفة الأرض والقيام بفتحها، وهذا الأمر السامي أحد الواجبات المحتمة المنقوشة على صفحة عقولنا أو ذكائنا ونشاطاتنا. لقد أصبحت الجغرافيا. بذلك العلم الذي يُلهِم مثل هذا التفاني الجميل والذي قُدِم باسمه العديد من الضحايا، فلسفة الأرض"[12].

---

[10] إدوارد سعيد: الثقافة والأمبريالية، ص 329.

[11] عشراتي سليمان: الأمير عبد القادر السياسي –قراءة في فرادة الرمز والريادة–، أطفالنا للنشر والتوزيع، الجزائر، دار القدس، وهران، ط1، 2011م، ص 296.

[12] إدوارد سعيد: الثقافة والإمبريالية، ص 230.

نفهم جيداً أن المعركة هي معركة أرض بالدرجة الأولى، ولكن السّؤال الذي يتبادر إلى أذهاننا ونحن نحاول تفكيك هذا الفكر الإمبرياليّ المقيت، ماذا بعد الحصول على الأرض؟ هل ستكتفي الإمبريالية بالثروات الطبيعية من معادن ومحروقات وخيرات تضمن بها ثراءها الاقتصادي ورخاءها الاجتماعي؟ أم أنّ فلسفة الأرض سوف تمتد إلى الإنسان باعتباره الثروة الأهم؟ وكيف سيكون شكل الاستثمار في الإنسان؟ إنّه محاربة الهوية والثقافة الأصلانية وإخراج أهلها خارج الحضارة والتاريخ.

لقد سعى إدوارد سعيد من خلال قراءته الثقافية المتعمقة إلى تفكيك الخطاب الكولونيالي الفرنسي وكشف التناقض الشديد بين ما يظهره من تعاطف وإنسانية واحترام لحقوق الإنسان تتغنى به فرنسا في المحافل الدولية وبين ما تبطّنه من رغبات استعمارية محمومة ترفض الآخر رفضا قطعيا وتعمل على إلغاء كل مقومات هويته الأصلانية وطمسها، وفي هذا يقول **إدوارد سعيد:**

"أنّ تاريخ الجزائر من 1830م إلى 1870م مصنوع من التّظاهر والادعاءات الزائفة. فثمة المستعمرون الذين زعموا أنّهم يرغبون في تحويل الجزائريين إلى بشر مثلهم، فيما كانت رغبتهم الوحيدة في الواقع هي تحويل تربة الجزائر إلى تربة فرنسية، والعسكريون الذين يفترض أنّهم كانوا يحترمون التقاليد وطريقة الحياة المحلية، فيما كان همهم الوحيد في الواقع أن يحكموا بأقلّ جهد ممكن، وادعاء نابليون الثالث أنّه كان يشيد مملكة عربية، فيما كانت أفكاره المركزيّة أمركة الاقتصاد الفرنسي والاستعمار الفرنسي للجزائر"[13].

وعليه كان من الضروري تبني آليات جديدة في قراءة هذا الفكر بعيدا عن القراءات الأحادية التي سيطرت على الفكر البشري وعملت على فصل العالم الثالث عن العالم الحضاري وجعلته تابعا له مشغولا دائما بكيفة اللحاق به باعتباره النموذج الأعلى والأوحد.

3- إستراتيجية المقاومة الثقافية في فكر الأمير عبد القادر:

مرّت ثقافة المقاومة للمد الإمبريالي عند **الأمير عبد القادر** بمرحلتين هامتين، مرتبطتان بحياة الأمير العسكرية والسياسية، مزجت **المرحلة الأولى** بين الفعلين العسكري والثقافي وبلغت ذروتها فيما سمي **بالزَّمالة** عاصمة لدولة متنقلة على ظهور الجمال، كانت "فضاء أهليا تفاعلت فيه عن كثب عوامل الثقافة والاجتماع والمشاعر فانفتح المجال لتلاقح الأذواق والطبوع والمهارات الفنية والثقافية الوطنية وتمخّض ذلك التفاعل الإيجابي عن ميلاد الفعل الثقافي والجمالي الوطني الحديث إذ أنّ الفئات الأهلية التي تساكنت في تلك الحظيرة القومية المتنقلة كانت متنوعة

[13] المصدر نفسه، ص 242.

في تركيبتها البشرية، تنتمي إلى جغرافية الوطن بكاملها، فالشاوي والقبائلي والتلي والصحراوي والكولوغلي والمسلم والذمي والرومي جميعاً يتبادلون الخبرة ويصوغون نظما مدنيّة وانتفاعية في مجال التعايش الجهادي والمرابطة"[14].

لم تكن الزمالة بالحدث العادي وإنما كانت تحمل رمزية المقاومة والتشبث بكل مقومات الهوية الوطنية في رغبة عميقة من الأمير والتابعين له بالاحتفاظ بتلك المقومات إلى آخر رمق جامعة في أكنافها كل مظاهر الحياة الثقافية الجزائرية، ويكفي أن "نعلم أن أحياء الزمالة كانت تضم النحاسين والنجارين والحدادين والصباغين والخطاطين ومربي الخيول ومعلمي الكتاتيب والخبازين والـ... لندرك مدى الحيوية الثقافية التي استطاع الجهاد أن يبعثها في ذلك الوسط الذي كان يمارس دوراً تنويرياً يشع في باقي جهات الوطنية"[15]، فقد عمل الأمير عبد القادر على إقامة هذه العاصمة التي كانت تعكس شخصيته كرجل سياسية وحرب، ورجل أدب وشعر، ورجل دين وزاوية تظافرت تلك الملامح كلها للوصول إلى الهدف الأسمى من هذا الصرح (الزمالة) وهي صناعة الإنسان، الإنسان المثقف الواعي الذي يدرك تمام الإدراك الخطر الذي يتربص به، وبذلك كانت "الزمالة الرحم الذي ولد فيه النموذج الثقافي والفني والجمالي الوطني للجزائر المعاصرة، وعلينا أن ننقب اليوم وبكلّ حرص عن خصوصيات ذلك النموذج، لأنّ المستعمر أزال الآثار عن تبييت إجرامي مغرض"[16]

أما **المرحلة الثانية** فهي مرحلة فارقة في فكر الأمير المقاوماتي وتتمثل تحديدا في مرحلة ما بعد (ما سُمي)بالمعاهدة الاستسلام، والتي كانت مرحلة حرجة زاد فيها يقين الأمير عبد القادر بدونية الإمبريالية الفرنسية وبعدها عن الأخلاق والقيم الإنسانية التي لطالما تغنت بها دولة الحرية والعدالة والمساواة ، "ودخل عليه دوماس وأخبره أنهم قاصدون فرنسا حسب أوامر الملك الذي يعتذر له عن عدم الوفاء بشرط" الهجرة "لأنه لاقى معارضة شديدة من مصادر عليا في فرنسا. وقال له أيضاً على لسان الملك :إن فرنسا مستعدة لأن تَمنحكم أراض شاسعة وقصوراً تعيشون فيها مكرمين، ويستطيع أفراد حاشيتك امتلاك مزارع يعملون فيها طيلة حياتهم إلى جانبك." [17]

في تلك اللحظة التاريخية الفارقة اتضحت صورة فرنسا الامبريالية بجلاء أكثر فلم يستطع قبول وضعه تحت أمر واقع فكان ردّه على الجنرال دوماس حكيما رغم هول الصدمة، فقال: إنّي لا أقبل هذا ولو فرشت لي سهول فرنسا ومسالكها بالديباج وها أنا بين أيديكم فافعلوا ما بدا لكم ولا يمكن أن أترك طلب الوفاء بالعهد مادمت حيا ومن عجيب ما يسمع أنني كنت أرى نفسي ضيفكم فجعلتموني أسيركم وأخذتم تعددون علي أمورا قمت بواجبها ذبا عن

---

[14] عشراتي سليمان: مرجع سابق، ص ص 318-319.

[15] المرجع نفسه، ص 319.

[16] المرجع السابق، ص 319.

[17] علي بن محمد الصلابي: سيرة الأمير عبد القادر قائد رباني ومجاهد إسلامي، دار المعرفة، بيروت، دط، دت، ص 269.

ديني وحماية لبلادي ولازال التفاخر بها وبأمثالها قديما وحديثا، فإنّ القيام بها دليل على كمال الرجولة والعدول عنها برهان على ضعف الإنسانية"[18].

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

ما أن انكشف اللثام على الصورة المقيتة **للجنرال دوماس** وحكومة بلاده حتى **بدأ الأمير عبد القادر** مرحلة أخرى من النقد المقاوم، مرحلة وعي نقدي مختلف، وكفاح من نوع آخر، انسحب فيه السيف تارك المجال للقلم كوسيلة رأى فيها **إدوارد سعيد** ضرورة ملحة إن لم نقل وسيلة لكل مقاوم في قلب هذا العالم المهمش إن أراد أن يجد لنفسه سبيلا للخروج من الهامش أو على الأقل لأقناع الآخر أنه ليس الوحيد الذي يحق له أن متنا، فالغربي ليس الوجه الوحيد للحضارة، وإنّما للحضارة وجوه كثيرة وروافد متعددة حوّلها الغربي إلى مصلب واحد خدمة لأغراضه السلطوية المتعجرفة، لتأتي أقلام المثقفين الإمبرياليين لتزيد من عمق هذا التهميش ليصبح إلغاء بعد تشويه لكلّ ما هو خارج العرق الأوروبي الأبيض. وعليه دعا إدوارد سعيد المثقف إلى ضرورة على الخطاب الإمبريالي الاستعماري بخطاب مضاد يقول سعيد باعتباره "الوسيلة التي تستخدمها الشعوب المستعمرة لتأكيد هويتها الخاصة ووجودها التاريخي الخاص(...) إنّ الأمم كما اقترح أحد النقاد هي سرديات ومرويات وإنّ القوة على ممارسة السرد، أو على منع سرديات أخرى من أن تتكون وتبزغ لكبيرة الأهمية بالنسبة للثقافة والإمبريالية والأكثر أهمية هو أنّ السرديات الجليلة الكبرى للتحرر والتنوير قد جندت الشعوب في العالم المستعمر وحفزتها على الانتفاض وخلع نير الإمبريالية، وخلال هذه العملية هزت تلك القصص وأبطالها العديد من الأوروبيين والأمريكيين أيضا، فقاموا هم بدورهم من أجل سرديات جديدة للمساواة والروح المجتمعية الإنسانية"[19].

يعدّ كتاب **المقراض الحاد لقطع لسان منتقص دين الإسلام بالباطل والإلحاد** واحدا من أبرز المؤلفات التي كتبها الأمير عبد القادر في فترة أسره بقصر أمبواز بعد أن نسيت فرنسا عهودها ودعت الأمير إلى نسيانها، وإذا أردنا البحث عن الأسباب الداعية إلى تأليف هذا الكتاب فإننا نستطيع أن نستشفها مما جاء في مستهل كتابه:

" عندما طلب مني شرح عن معتقداتي الإسلامية، أجبتهم بأنني لا أصلح تلميذا لعلماء المسلمين، فضلا أن أكون من جملتهم. ولكنني سأبذل الجهد، وأذكر كلام الله سبحانه وتعالى، وأحاديث رسوله صلى الله عليه وسلم، وكلام التابعين، والخلفاء الراشدين لأنّها أمور مرتب بعضها على بعض"[20].

---

[18] محمد بن الأمير عبد القادر الجزائري : تحفة الزائر في مآثر الأمير عبد القادر وأخبار الجزائر، المطبعة التجارية، الإسكندرية، دط، 1903م، ج02، ص 06.

[19] إدوارد سعيد: الثقافة والإمبريالية، ص 18.

[20] الأمير عبد القادر الجزائري: المقراض الحاد لقطع لسان منتقص دين الإسلام بالباطل والإلحاد، تح الأميرة بديعة الحسني الجزائري، دار الوعي للنشر، الجزائر، دط، 2012م، ص 77.

والذي يحيلنا على أنّ الكتاب قد جاء في معرض الردّ على أسئلة المستعمر حول تعاليم الدين الإسلامي وشرحا لمعتقداته، وهي في واقع الأمر أسئلة مبطنة تعكس نظرة الاستخفاف التي ميّزت الفكر الاستعماري الذي لطالما اتجه نحو تقزيم المنجز الحضاري الإسلامي، فجاء هذا الكتاب ليؤكد صاحبه أنّ للمسلمين علماء أفذاذ في كافة مناحي العلم والفكر، ولهم إسهامات حضارية كبيرة لا يمكن تجاهلها أو نكرانها، ولقد كان هذا الردّ على مثل هذه التصورات الإمبريالية هاجسا يسكن الأمير عبد القادر ولربما كان أكبر من هاجس القتال والذود عن الأرض، فلم تكن معركة القلم والفكر أقل أهمية وشراسة من معركة السيف، وهو ما يطرح جملة من التساؤلات حول الآليات التي اعتمدها الأمير في الردّ على الطاعنين في الإسلام وعلماء الإسلام ومنجزهم الفكري والحضاري.

اختار الأمير لكتابه عنوانا جريئا ينبِئ برد مفحم على جملة التّساؤلات التي وجهت إليه والتي تستهدف المنظومة الفكرية والعقدية الإسلامية والشرقية عموما، والناظر في الكتاب يحظ التنوع الكبير في مصادر الاحتجاج التي لجأ إليها الأمير عبد القادر وهي مصادر تعكس مرجعياته الفكرية والعقدية، وقد كان هذا الكتاب "أشبه برسالة تصدى فيها الأمير عبد القادر للتدليل بحجج دامغة وأدلة منطقية عقلية وكونية على وجود الله سبحانه وتعالى خالق هذا الكون"[21] في هذا الكتاب الذي تنوعت موضوعاته بتنوع الأسئلة الموجهة إليه، فخاض في العقيدة والفقه الإسلامي، والتربية الإسلامية وما تدعو إليه من محلة ووفاء وإخلاص ورحمة، كما وقف مطولا عند قيمة الإنسان ومكانته في الفكر الإسلامي، وقد ارتكز نقد الأمير عبد القادر للمركزية الأوروبية على محور اثنين:

أ– نقد العقل الأوروبي:

كانت البؤرة الموضوعية التي انطلق منها الأمير في بسط مختلف موضوعاته ومناقشتها والتدليل عليها هي تيمة العقل، باعتباره "منبع العلم ومطلعه وأساسه والعلم يجري منه مجرى الثمر من الشجر"[22]، وقد قسّم الأمير العقل إلى قسمين؛ نظريّ وعمليّ ثم عمل على المفاضلة بينهما وفق حجج وبراهين وصل من خلالها إلى أنّ العقل النظري أشرف لتعلقه بذات الله سبحانه وتعالى، مقارنة بالعقل العملي لأنّه مدخل من مداخل الإلحاد المؤدي إلى سوء استعمال العقل والإفراط فيه[23]، ومن هذا المنطلق قارب الأمير عبد القادر الحضارة الأوروبية بما فيها الفرنسية لاعتمادها على العقل العملي وإسرافها فيه وتعلّقها بالحياة العقلية المادية متجاوزة العقل النظري بأبعاده الروحية الإيمانية، يقول الأمير عبد القادر:

---

[21] عبد الرزاق السبع: الأمير عبد القادر وأدبه، مؤسسة جائزة عبد العزيز سعود البابطين للإبداع الشعري، ص 203.

[22] الأمير عبد القادر: المقراض الحاد، ص 09.

[23] المصدر نفسه، ص ص 14-22.

"وقد اعتنى علماء فرنسا ومن حذا حذوهم باستعمال العقل العملي وتصريفه، فاستخرجوا الصنائع العجيبة والفوائد الغريبة، فاقوا بها المتقدمين، وأعجزوا بها المتأخرين(...) فلو استعملوا مع هذا العقل النّظريّ في معرفة الله وصفاته، وفي معرفة حكمته في خلق السماوات والأرض، وما يلزم للإله من كمال، وما يتقدّس عنه من النّقص، وما يمكن في حقّه أن يفعله وأن لا يفعله لكانوا حازوا المرتبة التي لا تدرك، والمزية التي لا تشرك، ولكنّهم أهملوا استعمال هذه القوة النظرية حتى إنّهم لا يسمع منهم ذاكر، ولا يعثر عليها في كتبهم ناظر"[24]، وتلك حجة الأمير الموضوعية في بيان خلل الحضارة الأوروبية وإغراقها في المادية رغم اعترافه الصريح بالتقدم العلمي والصناعي الذي وصلت إليه، والذي يعدّ أهم أسباب تقدمها الحربي وتفوقها عليه في معركة السيف.

ب- نقد النموذج الأخلاقي الأوروبي (فرنسي):

ومن أبرز القضايا التي خاض فيها الامير عبد القادر في هذا الكتاب وجادل فيها خصومه من أصحاب الفكر الأمبريالي المتعالي ما حث عليه الدين الإسلامي من مكارم الأخلاق التي غابت عن دعاة الحرية والمساواة، والتي خصص لها بابا في كتاب المقراض أسماه **"الوفاء عند المسلمين"**، ولعل في العنوان إشارة صريحة إلى خيانة فرنسا لمواثيقها وادعائها الإنسانية والوصاية على الشعوب المستضعفة، جاء في بيان ماهية الخلق قول الأمير:

"فالخلق عبارة عن هيئة النفس راسخة تصدر عن الأفعال بسهولة ويُسر من غير حاجة إلى فكر وريّة. فإن كانت الهيئة بحيث تصدر عنها الأفعال الجميلة المحمودة عقلا وشرعا سمِّيت الهيئة التي هي المصدر خلقاً سيئاً"[25]. وقد جعل **الأمير عبد القادر** محاسن الأخلاق في أربعة أصول إليها ترجع سائر الأخلاق الأخرى، وهي عنده؛ **الحكمة والشجاعة والعفة والعدل**، ومن "اعتدالها يحصل حسن التّدبير وجودة الذّهن، وثبات الرّأي، وإصابة الظّنّ، والتّفطن لدقائق الأمور، ومن إفراطها تصدر العربدة والمكر والخداع والدّهاء، ومن تفريطها يصدر البله والغباوة والحمق والجنون"[26]، ومن اجتمعت فيه تلك الصفات واعتدلت حسب رأي الأمير كان أولى الناس بحكم الناس وقيادتهم في الدنيا، ولعل النموذج الأعلى في تمام تلك الأخلاق واعتدالها تمثل وتجلى في شخص النبي – صلى الله عليه وسلم- فبه تقاس أخلاق الناس اقترابا وابتعادا، وفي ذلك رد مفحم على الأمبريالية الفرنسية التي يحكمها من يبتعد كل البعد عن تلك الأخلاق ولعل الخيانة الكبرى لميثاق معاهدة الاستسلام بين الأمير وبينهم لخير دليل على مجانبة الأمبريالية الفرنسية لما تدعيه من قيم الحرية والمساواة.

---

[24] الأمير عبد القادر: المقراض الحاد، ص ص 40-41.

[25] المصدر نفسه، ص 191.

[26] المصدر نفسه، ص 195.

خاتمة:

- لقد استطاع الأمير عبد القادر إكمال مساره النضالي الذي سطّره في وجه الإمبريالية الفرنسية عن الحجة والدليل، ولعل كتاب المقراض ما هو إلاّ نموذج من بين العديد من المؤلفات التي ألفت لها الغرض، وقد كان لها كبير الأثر في تغيير صورة الإسلام والمسلمين في أذهان الأمبرياليين متمثلة بشكل في خاص في شخص الأمير عبد القادر.
- وجد إدوارد سعيد في شخصية الأمير عبد القادر النموذج المثالي للمثقف المقاوم الواعي بعمق خطر الممارسات الأمبريالية الساعية إلى طمس الهوية الأصلانية للشعوب المستعمرة، كما رأى في الثورة الجزائرية المجيدة امتدادا لتلك الجهود الواعية الأولى في مقدمتها مقاومة الأمير عبد القادر الجزائري
- يعد كتاب المقراض الحاد نموذجا للنقد المقاوم سعى من خلاله الأمير عبد القادر إلى إنتاج خطاب مضاد مشفع بالحجج والأدلة الرامية إلى دحض إدعاءات الفكر الإمبريالي بحق الإسلام والمسلمين.

وفي الختام يمكننا القول لئن كان السيف في معركة الأمير عبد القادر قد هُزم فإنّ القلم لم يهزم بل شق طريقه نحو الحرية بكلّ براعة وتميّز فكان مثالا يقدى ونموذجا يحتذى.

قائمة المصادر والمراجع:

1- المصادر:

- إدوارد سعيد: الثقافة والإمبريالية، ترجمة كمال أبو ديب، دار الآداب، القاهرة، ط4، 2014م.
- الأمير عبد القادر الجزائري: المقراض الحاد لقطع لسان منتقص دين الإسلام بالباطل والإلحاد، تح الأميرة بديعة الحسني الجزائري، دار الوعي للنشر، الجزائر، دط، 2012م، ص 77.

2- المراجع:

- إدوارد سعيد: العالم والنص والنقد، ترجمة عبد الكريم محفوض، منشورات إتحاد الكتاب العرب، دمشق، ط1، 2000م.
- إدوارد سعيد: تمثيلات المثقف، ترجمة حسام خضور، دار التكوين، بيروت، ط1، 2003م.
- بشرى موسى صالح: نظرية التلقي – أصول وتطبيقات-، المركز الثقافي العربي، المغرب، ط1، 2001م.
- سليم حيولة: استراتيجيات النّقد الثّقافيّ في الخطاب المعاصر من القراءة الجمالية إلى القراءة الثّقافيّة –بحث في الأصول المعرفيّة-، ط1، دار ميم للنشر، الجزائر، 2021م.
- عبد الرزاق السبع: الأمير عبد القادر وأدبه، مؤسسة جائزة عبد العزيز سعود البابطين للإبداع الشعري.
- عشراتي سليمان: الأمير عبد القادر السياسي –قراءة في فرادة الرمز والريادة-، أطفالنا للنشر والتوزيع، الجزائر، دار القدس، وهران، ط1، 2011م.
- علي بن محمد الصلابي: سيرة الأمير عبد القادر قائد رباني ومجاهد إسلامي، دار المعرفة، بيروت، دط، دت.

- محمد بن الأمير عبد القادر الجزائري : تحفة الزائر في مآثر الأمير عبد القادر وأخبار الجزائر، المطبعة التجارية، الإسكندرية، دط، 1903م.

- مصلح النجار: صورة الأنا عند الآخر وبتأثيره، ضمن ضمن الدراسات الثقافية ودراسات ما بعد الكولونيالية، وقائع المؤتمر الثالث للبحث العلمي في الأردن، 2007/11/17م، الجمعية الأردنية للبحث العلمي والدار الأهلية للنشر والتوزيع، الأردن، ط1، 2008م.